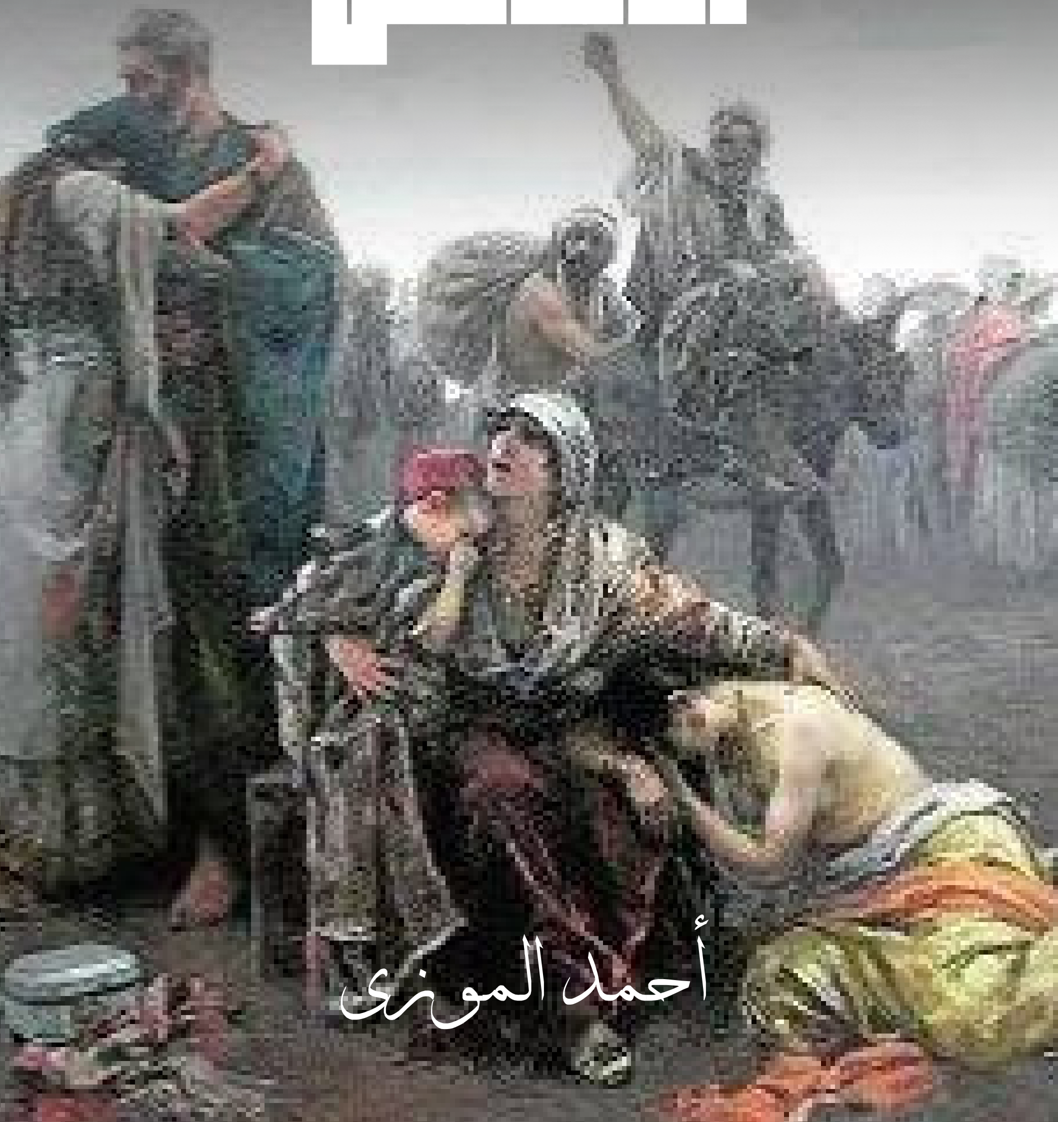
مطرود من الأندلس



أحمد الموزى

مطرود من الأندلس

(قصة حدوث واحدة من أكبر جرائم التطهير العرقى فى حق الموريسكيين)

أحمد الموزى

مقدمة

عندما تقوم بزيارة قصر الحمراء في غرناطة بإسبانيا، تستمتع بالأجواء، ترى المعالم، تشاهد النافورات، تندهش عند رؤيتك للمقرنصات فى سقف القصر، ثم يخطر فى بالك سؤال، من بنى هذا القصر؟ ومن أصحاب هذه الحضارة؟

إذا قمت بزيارة الأهرامات في مصر أو تاج محل بالهند أو سور الصين العظيم؛ ترى أحفاد بناة هذه الحضارات يتفاخرون بمعالمها، يقدسونها ويحافظون عليها.

لكن عندما نتحدث عن قصر الحمراء، نجد أن كل من بنى هذا القصر أختفى إلى الأبد، كأنهم لم يولدوا، والسر وراء هذا الاختفاء هو خطة بشعة وجريمة من أقذر جرائم التطهير العرقى فى التاريخ فى حق شعب اسمه **الموريسكيين.**

فى عام **٧١١ م**، ذهب جيش من المسلمين مكون من سبعة آلاف مقاتل بقيادة **طارق بن زياد** إلى شبه جزيرة أيبيريا. جيش صغير يعبر من مضيق جبل طارق، لكن هذا الجيش الصغير سيطر على شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال حاليًا) فى غضون سبع سنوات فقط.

لكن القوط سكان شبه الجزيرة لم يروا أن جيش المسلمين يحتل البلاد، بل كانوا يرون أنها مجرد عملية انتقال إلى السلطة، حيث أنه لم توجد سلطة في شبه جزيرة أيبيريا من قبل، بل كان يوجد ممالك غير متحدة في شبه الجزيرة، كل مجموعة تتخذ قائدًا لها.

شهدت شبه جزيرة أيبيريا ضعفًا سياسيًا وإقتصاديًا وغياب السلطة المركزية؛ مما سهّل على جيش المسلمين الدخول إليها والانتصار بسهولة.

لكن أكثر شئ سهّل على العرب نشر الإسلام فى شبه جزيرة أيبيريا هو تقبُل القوط سكان أيبيريا للإسلام؛ بسبب التقارب الكبير بين الإسلام والعقيدة المسيحية الأريوسية التى كانت سائدة قبل مجئ المسلمين، لأن اعتقاد القوط بتلك العقيدة التوحيدية التى ترفض الثالوث، جعلهم يرون في الإسلام دينًا منسجمًا مع تصورهم الاعتقادي؛ مما سهل نفوذه فى وجدانهم الديني.

الفصل الأول

بداية النـهاية!

في قرطبة عام **٩٥٠ م،** وصل تعداد سكان قرطبة إلى مائتى ألف نسمة، بينما كان تعداد سكان باريس في ذلك الوقت هو عشرون ألف نسمة، مما أثار الدهشة في جميع أنحاء العالم القديم.

لكن الأكثر غرابة، عندما تتعمق في مجتمع قرطبة؛ تجد أنه مكون من مسلمين ويهود ومسيحيين وكثيرًا من العلماء والباحثين من مختلف الأديان، مثل العالم المسلم **أبو القاسم الزهراوى،** الذى أُطلق عليه أبو الجراحة الحديثة وعميد الجراحين.

قام الزهراوي باختراع أكثر من مائتى اختراع جراحى منهم أدوات ما زالت تستخدم حتى الآن، مثل المشرط، الملقاط، أدوات الولادة، أدوات خلع الأسنان، وهو أول من قام بعملية ولادة قيصرية دون موت الأم، والقيام بالعديد من عمليات العيون.

لم يكن ليتمكن الزهراوي من اختراع هذه الأدوات أو الوصول إلى اكتشافاته بدون اليهودى حسداي بن شبروط، الذي كان طبيبًا وزير

الخليفة فى ذلك الوقت، هو أول من طوّرالبيمارستان (المستشفى)، ذلك المكان الذي تعلم فيه الزهراوى. ويعود الفضل ايضًا إلى الراهب المسيحي نيكولاس «nicholas» الذى قام بترجمة كتب الطب من اليونانية إلى العربية، من أشهر هذه الكتب كتاب dioscoridis فى علم الأدوية والذي استفاد منه الزهراوي أقصى استفادة وتوصّل من خلاله إلى اكتشاف العديد من الأدوية.

لكن للأسف هذا العصر المزدهر الذي كان يتكون من مجتمع يتعايش فيه المسلمون واليهود والمسيحيون لم يستمر طويلاً.

فى عام **١٠٣١م**، سقطت الخلافة الإسلامية في قرطبة، التي نتج عنها تقسيم الأندلس إلى العديد من الطوائف (أكثر من ٢٢ مملكة) سُميت هذه الممالك فيما بعد بملوك الطوائف.

للأسف كان كل ملك من ملوك الطوائف يحارب الآخر حروباً لا تنتهى، على الجانب الآخر كان يستعد الأوربيون للهجوم، كانوا يتقدمون خطوة بخطوة نحو ممالكهم؛ من أجل إستعادتها، بينما كان ملوك الطوائف يدفعون مبالغ هائلة سنويًا فى حروبهم ضد بعضهم، لذلك كانت النهاية متوقعة وكانت تحدث بتصوير بطئ جدًا، ومع الوقت انهارت حالة التسامح بين مختلف الأديان في الأندلس، حيث نرى الفيلسوف المسلم ابن رشد تُحرق كتبه ونراه هاربًا من البلاد نحو المغرب، وكذلك الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون الذى هرب خارج البلاد واتجه نحو الشرق؛ ليكون الطبيب الشخصى لصلاح الدين الأيوبى فى المستقبل.

عند حلول عام **١٢٣٨م**، سقطت جميع ممالك الأندلس واحدة تلو الأخرى إلا مملكة واحدة وهي مملكة غرناطة.

كانت غرناطة تتميز بمميزات جغرافية وسياسية وكان حجمها ١٥٪ من مساحة الأندلس بينما ٨٥٪ تحت سيطرة الأوروبيين، وكانت أبرز الممالك التي سيطر عليها الأوروبيون هما مملكتى قشتالة وأراجون، وكانت مملكة طليطلة أول الممالك التي تسقط، مع أول سقوط لمملكة طليطلة ظهر ما يُعرف **بالمدجنين المسلمين**.

الطعنة الأولى

بعد فتح المسلمين للأندلس، كوّن النصارى أربعة ممالك فى شمال الأندلس وهم مملكة نافارا، ليون، قشتالة و أراجون، كانت كل مملكة من هذه الممالك تحارب بعضها البعض، حتى اجتمع فرناندو ملك نافارا بجميع الملوك واقترح عليهم الإتحاد ومواجهة المسلمين، لكن اقتراحه تم رفضه؛ لذلك دخل فرناندو حروبًا مع الممالك الأخرى، وقام بتوحيد جميع الممالك تحت اسم مملكة إسبانيا.

فى ذلك الوقت كانت الأندلس مقسمة إلى العديد من الممالك، فى غرناطة بنو الأحمر وفى إشبيلية بنو عبّاد وكان يحكم طليطلة بنو ذي النون، وكانت جميع تلك الممالك فى حالة ضعف وتفرق.

أمر فرناندو جميع ملوك الطوائف بدفع الجزية له؛ كى لا يحاربهم، واستمر المأمون بن ذى النون حاكم طليطلة بدفع الجزية، حتى مات فرناندو.

كان لفرناندو أربعة أبناء أشهرهم سانشو و ألفونسو السادس، تمكن سانشو من السيطرة على الحكم، بينما هرب أخوه ألفونسو السادس إلى المأمون بن ذى النون كلاجئ سياسى، رحب المأمون بألفونسو وأخذ يفسحه في المدينة، حتى علم ألفونسو بجميع مداخل ومخارج طليطلة، وكان ألفونسو يجلس مع المأمون فى قصره ويجلس حيث كان يجتمع المأمون ووزرائه، ويعلم منهم جميع المعلومات عن طليطلة ومقدار الأموال والكنوز الموجودة فى كل قصر من قصور طليطلة، فى وسط غفلة من المأمون، وبعد موت سانشو جاء الدور على ألفونسو السادس لتولي الحكم، فرح المأمون بذلك الخبر واتفق مع ألفونسو برفع الجزية عن طليطلة، ثم غادر ألفونسو من طليطلة وكان أول أمر له بعد تولي الحكم هو تجهيز الجيش والذهاب لطليطلة.

فرض ألفونسو السادس ضعف الجزية التي كان يدفعها لأخيه سانشو، فى وسط حالة من الدهشة من جانب المأمون، لكنه اضطر للموافقة؛ كى لا يحاربه، وبعد موت المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة، خلفه إبنه يحيى في عام **١٠٧٥م**،، ولقب نفسه القادر بالله، وكان ضعيف الرأي، فاسد الأخلاق أكثر من والده، أمر الفونسو بدفع الجزية له كما كان يدفعها والده، أستجاب القادر له وقام بدفع الجزية حتى أرسل إليه بأن طليطلة قد أفلست، لكن ألفونسو السادس كان لديه علم بجميع أموال طليطلة، فأرسل إلى القادر يأمره بالأموال الموجودة في القصور التي كان يأخذه إليها والده المأمون، حتى تأكد ألفونسو من إفلاس طليطلة، فقام بإعداد الجيش.

أعد الفونسو السادس العدة للقضاء على طليطلة، ووضع خطته التي تمهد لمشروعه بالسيطرة على مدن الأندلس كلها، وكان المعتمد

بن عباد حاكم إشبيلية عندما رأى خطر وقوة ألفونسو، عقد معه مهادنة وصلح ليحمي أراضيه من ألفونسو، حيث بعث وزيره أبو بكر بن عمار ليتفاوض معه ألفونسو، وتمت المعاهدة والاتفاق وكان من ضمن المعاهدة أن لايعترض المعتمد بن عباد على استيلاء ألفونسو على طليطلة.

ثم في شوال **١٠٨٤م**، ضرب ألفونسو الحصار على الحصون والمدن التابعة لطليطلة، وظل في حصارها أربع سنوات، يدمر الزرع والأراضي والقرى، وعاش الناس في ضيق شديد، دون مساعدتهم من بقية ملوك الطوائف في الأندلس. إلاَّ أن المتوكل على الله بن الأفطس حاكم بطليوس حاول مساعدتها وأرسل ولده الفضل بجيش قوي لطرد ألفونسو عن طليطلة، لكنه لم يوفق، على الرغم مما أبداه من حماسة بالغة وما خاضه من معارك دامية. ثم في خريف عام **١٠٨٤م**،اقترب ألفونسو من مدينة طليطلة ذاتها، وأحكم الحصار عليها، وضاق الناس به، وكان موقف يحيى القادر مريبًا وضعيفاً، وكأنَّ هناك اتفاق مسبق بينه وبين النصارى القشتاليون**!** وحاول أهل المدينة حتى يصبروا على الحصار حتى تأتيهم نجدة من المسلمين حولهم، ولكن لم يصلهم أي عون. ولما طال الحصار، أوفد أهل طليطلة بعض زعمائهم إلى ألفونسو يتحدثون معه عن الصلح والهدنة، إلا أن ألفونسو رفض بشدة، وعاد زعماء طليطلة خائبين، وأيقنوا بسوء المصير.

وكانت من ضمن شروط ألفونسو على أهل طليطلة للتسليم:

حتى يُؤَمَّن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم، يُغادرها مَن يشاء حاملاً أمواله، وأن يُسمح لمن عاد منهم باسترداد أموله.

أن يُؤدوا الجزية إلى ملك قشتالة على ما كانوا يُؤدونه لملوكهم من المكوس والضرائب.
يحتفظ المسلمون للأبد بمسجدهم الجامع، وأن يتمتَّعوا بالحرية التامة في إقامة شعائرهم وشريعتهم.
تسليم سائر القلاع والحصون.
أما بالنسبة لحاكم طليطلة يحيى القادر بن ذي النون، يساعده ملك قشتالة على الاستيلاء على مدينة بلنسية، وتخضع له القواعد الشرقية كلها.
وخرج يحيى القادر من طليطلة ذليلاً هو وأهله، ومن بعدها أصبحت طليطلة أسيرة لألفونسو السادس وخيّم عليها الليل وهى مرتدة فى قبضة النصارى.

كان سقوط طليطلة بمثابة طعنة في جسد الأندلس، وبداية عصر جديد تفوق فيه الأوربيون فى جميع المجالات.

حصار إشبيلية

فى عام **١٢٤٧م**، ذهب **فرناندو الثالث** ملك قشتالة مع قواته الجرارة إلى إشبيلية، وبدأ في محاصرتها وتطويقها من كل جانب، واحتل الأسطول النصراني مياه مصب نهر الوادي الكبير؛ ليمنع ورود الإمداد والمؤن إلى إشبيلية من طريق البحر، وكان وجود ابن الأحمر ملك غرناطة بقواته إلى جانب القوات النصرانية المحاصرة، يشترك مع أعداء أمته ودينه في تطويق الحاضرة الإسلامية العريقة، ولذلك لم يكن عجيبًا أن تتساقط مدن الأندلس وقواعدها في أيدي النصارى.

مضى على الحصار شهور طويلة، وإشبيلية تزداد إصرارًا على المقاومة والثبات ودفع النصارى وردهم، يخرج من المدينة بعض قواتهم للإيقاع بالنصارى، ثم تعود هذه القوات بعد أن تكون كبَّدتهم بعض الخسائر، وكانت تنشب بين حين وآخر معارك بحرية بين سفن القشتاليين والسفن الإسلامية في نهر الوادي الكبير، وفي الوقت الذي انسالت فيه الإمدادات العسكرية من أنحاء إسبانيا النصرانية كانت المُؤَن والعتاد في إشبيلية يتعرضان للنقص والفناء. وفي الوقت الذي عزز فيه النصارى حصارهم بحشود عسكرية، حُرمت إشبيلية من وصول المجاهدين إليها لنجدتها وعونها، ومن المؤن والأقوات لمواصلة الدفاع. ولم يبق لإشبيلية طريق للاتصال بالعالم الخارجي سوى قلعة طريانة، بعد أن استحكم الحصار واشتدت وطأته، وشعر أهالي إشبيلية بالضيق، وبدأ شبح الجوع يقترب منهم شيئًا فشيئًا، وبدأت صرخات شعراء إشبيلية تتعالى؛ طلبًا للنجدة والغوث، لكنها لم تجد الاستجابة الكافية من حكام المغرب القريبين.

كان الاستيلاء على قلعة طريانة هو الذي يشغل تفكير النصارى؛ حتى يقطعوا كل منفذ عن إشبيلية، وتنقطع صلتها بمن حولها؛ فتضطر إلى التسليم، وكان المسلمون على بينة مما يدور في ذهن النصارى، فحشدوا الرجال والسلاح والمؤن في القلعة، ورتبوا مجموعة من الرماة المهرة لإصابة فرسان النصارى حين يهاجمون المدينة، فلما هاجمت القوات القشتالية المدينة نجحت حاميتها في الدفاع عنها، وتكررت محاولات الهجوم الفاشلة في اقتحام القلعة، لكن ذلك كان يزيد النصارى إصرارًا على اقتحام المدينة، وعمدوا إلى محاصرة قلعتها برًا وبحرًا، وقدمت سفنهم إلى النهر أسفل القلعة، ونجحت في تحطيم القنطرة القوية التي كانت تربط قلعة

طريانة بإشبيلية عبر نهر الوادي الكبير، وفقدت بذلك كل صلتها بالعالم الخارجي.

استمر الحصار حول إشبيلية وطريانة، وأخذ يشتد يومًا بعد يوم، والمسلمون المحاصرون يعانون ألم الجوع ومتاعب الحصار، ولم تفلح محاولات العلماء في بثّ الروح وإعادة الثقة إلى النفوس الواهنة والأبدان الناحلة التي هدّها الجوع وعضَّها الحرمان، وانهكها القتال المستمر طوال خمسة عشر شهرًا، دون أن تأخذ قسطًا من الراحة، ولم تتحرك الدول القريبة لنجدة إشبيلية؛ فالدولة الموحِّدية مشغولة بمحاربة بني مرين، والدولة الحفصية لم تُلقِ بالاً إلى صرخات المحاصَرين، ودولة بني الأحمر الأندلسية مغلولة اليد بمعاهدة فخرية مع القشتاليين، ويشترك أميرها في حصار إخوانه المسلمين؛ لكل هذا غاضت الآمال في النفوس، وامتلك اليأس القلوب، وفقدت إشبيلية أي بارقة للإنجاد تخرجها مما هي فيه من ضيق وشدة.

لم يجد زعماء إشبيلية مفرًا من التسليم، وحاولوا أن يخففوا من وقع المصيبة، فعرضوا تسليم ثلث المدينة فرفض فرناندو الثالث هذا العرض، فحاولوا مرة أخرى بتسليم نصف المدينة، فأبى فرناندو الثالث إلا أن تسلم المدينة كاملة، فكان له ما أراد. وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن تسلم المدينة كاملة سليمة لا يُهدم من صروحها شيء، وأن يغادرها سكانها، مع السماح لهم بأن يحملوا كل أمتعتهم من مال وسلاح، وأن تُسلَّم مع المدينة سائر الأراضي التابعة لها.

ولما وقع الاتفاق بين الفريقين، سُلِّم قصر الوالي ومقر الحكم في إشبيلية إلى ملك قشتالة، فرفع عليه شعاره الملكي فوق برج القصر العالي في **٢١ نوفمبر ١٢٤٨م**، وكان ذلك إيذانًا بسقوط إشبيلية في أيدي النصارى القشتاليين. وقضى المسلمون شهرًا في إخلاء المدينة، وتصفية حاجاتهم، وبيع ممتلكاتهم قبل أن يغادروها، وتقدر بعض المصادر عدد من خرج بنحو ٤٠٠ ألف مسلم، هاجروا إلى مختلف نواحي المغرب والأندلس المسلمة.

وفى يوم **٢٢ ديسمبر ١٢٤٨م**، دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية مزهوًا بنفسه، مختالاً بقواته، يحوطه موكب ضخم، يتيه اختيالاً بما حقق من ظفر ونصر، واتجه إلى مسجد المدينة الأعظم الذي تحول إلى كنيسة، وقد وُضع به هيكل مؤقت، وأقيم في المسجد قداس الشكر، ثم اتجه إلى قصر إشبيلية، حيث أدار شئون دولته، وقام بتقسيم دور المسلمين وأراضيهم بين جنوده، ومن ذلك التاريخ أصبحت إشبيلية عاصمة مملكة قشتالة النصرانية بدلاً من طليطلة.

وهكذا سقطت إشبيلية حاضرة الأندلس بعد أن ظلت خمسة قرون وثلث القرن تنعم بالحكم الإسلامي منذ أن فتحها موسى بن نصير فى عام **٧١٢م**، وظلت منذ ذلك الحين مركزًا للحضارة، ومنارة للعلم، ومأوى العلماء والشعراء والأدباء، ولا تزال آثارها الباقية شاهدة على ما بلغته المدينة من نمو وازدهار.

بعد سقوط معظم الأندلس كان أمام الأوروبيين خيار من خيارين، إما أن يطردوا جميع المسلمين، وإما يجعلونهم تحت حكمهم، لكن اضطر الأوربيون على إبقاء المسلمين لعدة أسباب وهى:

أولاً: كان المسلمون يمثلون أغلبية السكان.
ثانياً: كان المسلمون هم من صنعوا جميع إمكانيات الحضارة في الأندلس، من مزارعين محترفين فى أنظمة الرى الحديثة، الذين أذاقوا الأوروبيين محاصيل لم يروها من قبل مثل الأرز، الشعير، القصب والسكر، ومدن مثل قرطبة وألميريا كانت تنتشر بهما صناعة الحرير، وطليطلة كانت من أهم وأشهر أماكن صناعة السيوف في العالم، لذلك كان صعبًا على الأوروبيين أن يطردوا العرب من الأندلس؛ لذلك قرر الأوروبيون أن يكون العرب موطنين درجة ثانية، ووضعت لهم شروط بعضها كان متساهل وبعضها متشدد.

كان مسموح للمسلمين في البداية بالاحتفاظ بالمساجد والقيام بإصلاحها واتّباع الشريعة الإسلامية فى الأحوال الشخصية مثل حفلات الزفاف، لكن على الجانب الآخر، كان يُفرض عليهم الضرائب، وكانوا مجبرين على إرتداء ملابس تميزهم عن باقى السكان ومُنع عليهم أى محاولات دعوة أى شخص إلى الإسلام.

لم يتحمل العرب كل هذه الشروط؛ فقاموا بالهجرة إلى المملكة القوية الوحيدة تحد قيادة المسلمين وهي مملكة غرناطة، لكن أغلبية السكان صعب عليهم ترك الأرض التي استقروا بها، وقرروا البقاء والانسجام، وأطلق على المسلمين الذين قرروا البقاء **المدجنين المسلمين.**

حفل زفاف تسبب فى سقوط الأندلس!

بعد سقوط إشبيلية أصبحت غرناطة هى المملكة المسلمة الوحيدة الباقية من الأندلس، وكان السبب الوحيد لعدم هجوم النصارى

عليها،هو وجود خلافات وحروب بين مملكتي قشتالة وأراجون وعدم التفرغ لمحاربة غرناطة.

فى عام **١٤٧٤م**، يموت إنريك الرابع ملك قشتالة، بعدها أصبحت **إيزابيلا الأولى** ملكة على قشتالة؛ ليطلب منها **فرناندو الثاني** ملك أراجون الزواج، وبعد زواج الملكين توحدت أكبر مملكتين فى الأندلس وهما أراجون وقشتالة.

اتحد الملكان وأصروا على وجود هدف واحد، وهو إنهاء وجود المسلمين في الأندلس، بينما كانت الأسرة الحاكمة فى غرناطة تحارب بعضها، حيث كان الأمير أبو عبد الله الصغير أو كما يسميه الإسبان **el chico** (اى الفرخ) يحارب أبيه الملك أبو الحسن على بن الأحمر من طرف وعمه محمد الزغل من طرف آخر،وكانت أمه عائشة الحرة تشجعه على أبيه،وانتهت هذه الحرب بانتصار أبو عبد الله الصغير على أبيه وعمه، لكنه لم يستطع الإحتفال كثيرًا؛ لأن النصارى كانوا على أبواب غرناطة.

تم حصار غرناطة أكثر من ثمانية أشهر، وقام الملكان فرناندو وإيزابيلا باستدعائه لتسليم غرناطة وتحت الضغط وانتشار المجاعة قام عبد الله الصغير بتوقيعِ اتفاق ينص على تسليم غرناطة، على الرغم من رفض المسلمين لهذه الاتفاقية. وبسبب رفض أهل غرناطة لهذه الاتفاقية، اضطر المسلمين للخروج في جيش عظيم للدّفاع عن المدينة، لكن قام أبو عبد الله الصغير بدبّ اليأس في نفوس الشعب إلى أن توقفت حملات القتال وتم توقيع اتفاقية في يوم **٢٥ نوفمبر ١٤٩١م** التي تنصّ على تسليم المدينة، وتسريح الجيش، وهكذا سقطت أخر قلاع المسلمين في الأندلس.

زفرة العربي الأخيرة

خرج أبو عبد الله الصغير من الأندلس ومعه ١١٣٠ رجل من رجاله، وخلال سيره وقف عند تل عالٍ وألقى نظرته الأخيرة على غرناطة وبكى بكاءً شديدًا فقالت له أمه «عائشة الحرة»:

«ابكِ مثل النساء مُلكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال»

ما زال هذا المكان معروفاً باسم (زفرة العربي الأخيرة) أو (بالإسبانية: el último suspiro del Moro).

توجه أبو عبد الله الصغير إلى فاس بالمغرب، وهناك قُبض عليه بتهمة خيانة دول المسلمين، وشُوهد أبنائه بعدها وهم يتسولون في شوارع المغرب.

كانت تنص إتفاقية غرناطة على ممارسة المسلمين لشعائر الإسلام، ورفع الأذان في المساجد، وعدم إجبار العرب والأمازيغ على تغيير دينهم، وقيل عن هذه المعاهدة أنها من أكثر المعاهدات سخاءً فى العصور الوسطى، لكن الأهم أنه قيل عنها أكثر معاهدة تم التآمر عليها فى الخفاء، فكانت بمثابة بداية لنهاية وجود المدجنين في الأندلس.

فى أول سبع سنوات بعد سقوط غرناطة من ١٤٩٢م إلى ١٤٩٩م، ألتزم الملكان فرناندو وإيزابيلا نسبيًا بالمعاهدة، لكن سرعان ما تلاشى هذا الإلتزام فى السنوات المقبلة.

الفصل الثانى

الإسلام مشكلة

كان القس المسؤول عن غرناطة في ذلك الوقت يسمى **هيرناندو دى تالاڤيرا «Hernando de talavera»**، كان شخصًا مؤمنًا بالحوار، يتعامل مع العرب والأمازيغ بحكمة، لكن مع الوقت ظهر شخص آخر زادت سلطته في البلاط الملكي، وهو الكاردينال **فرانسيسكو دى سيسنيروس« francisco de cisneros»**، الذي لم تعجبه حالة التسامح مع المسلمين، وكان يرى أن الأرواح المسلمة يجب تخليصها من الكفر بالقوة؛ فقرر تنفيذ أفكاره بمنتهى القوة والحزم، وبدأ بالقبض على المشايخ المسلمين وتهديدهم، إما أن يتركوا دينهم أو يظلوا فى السجن، ثم قام بتجميع العديد من المسلمين وبدأ تعميدهم بالقوة، وإذا رجعوا عن المسيحية؛ يقوم بقتلهم.

فى حدث صادم لأهالى غرناطة، قام فرانسيسكو بجمع آلاف المخطوطات العربية وقام بإحراقها فى ساحات غرناطة، ولم يعطى فرناندو وإيزابيلا أى إهتمام لما يفعله من قهر وتعذيب للمسلمين؛ بسبب انشغالهم فى تكوين الإمبراطورية، وتركوا فرانسيسكو يفرض سلطته على المسلمين.

فى نفس العام من سقوط غرناطة، كانت الملكة إيزابيلا تمول

المستكشف الإيطالي كريستوفر كولومبس، الذي كان خارجًا للبحث عن طريق تجارة جديد يوصله إلى الهند من ناحية الغرب، كان كولومبس يعلم أن الأرض كروية؛ فقرر الالتفاف حول الأرض للوصول إلى الهند، لكن كولومبس لم يصل إلى الهند، بل اصطدم بقارتين جديدتين مليئتين بالذهب والفضة والأراضى الكثيرة؛ فكان ذلك هو سبب انشغال الملكين عن المعاهدة واضطهاد المسلمين، مما زاد من سلطة فرانسيسكو ونفوذه.

فى ديسمبر عام **١٤٩٩م**، دخل مجموعة من الجنود الإسبان أكبر حر للمسلمين فى غرناطة وهو حى البيازين فى محاولة القبض على بعض المسلمين هناك، لكن المسلمين فى الحى لم يعجبهم ذلك، وقاموا بثورة ضد الجنود والإعتداء عليهم وقتلهم، ثم قاموا بحصار منزل فرانسيسكو وكانوا على بُعد خطوة واحدة من قتله، إلا أنه هرب إلى قصر الحمراء إلى الملك فرناندو، وهناك أمر الملك بمعاقبة سكان حي البيازين بالكامل؛ نتيجةً لذلك أصبح بعض المدنيين الغاضبين الحاملين لبعض الحجارة والأسلحة البيضاء فى مواجهة أقوى جيش أوروبى فى ذلك الوقت.

فى غضون أيام، سُحقت الثورة تمامًا، وتعرض سكان الحى إلى عقاب جماعي، واستغل فرانسيسكو هذه الثورة للتخلص من من الراهب المتسامح دى تالاڤيرا وقام بإتهامه أنه متعاطف مع المسلمين، بل بالغ واتهمه انه يهودى متخفي في زى مسيحى، وبالرغم أن المحكمة قامت بتبرئة الراهب، إلا أن هذه كانت نهاية وجوده.

قام الراهب بالتخلي عن منصبه وانعزل عن العالم؛ للعيش في دير حتى مماته عام **١٥٠٧م**؛ وبذلك تخلص فرانسيسكو من العقبة الوحيدة أمامه، ثم أقنع الملكين بإخراج مرسوم أن كل مسلم فى غرناطة أمامه خيار من خيارين، إما تغيير دينه وإما ترك البلاد.

بعد ذلك فى عام **١٥٠٢م**، ظهر مرسوم أكثر تعميمًا على جميع مسلمى إسبانيا، لكن صنّاع هذا المرسوم كانوا متأكدين أن المسلمين لن يستطيعوا الخروج من البلاد، بسبب تكلفة السفر المرتفعة فى الوقت الذى مُنع فيه المسلمين من أخذ أى أغراض لا تستطيع أيديهم حملها، وحصر القرار على المسلمين عدم أخذ أى ذهب أو فضة معهم أثناء الهجرة وكان عليهم أن يهاجروا ومعهم بعض الملابس فقط، وفوق كل ذلك لم يكن السفر ءامنًا فى ذلك الوقت، فكانت فرصة قتلك أعلى بكثير من فرصة وصولك، فكان القراصنة ينتظرون السفن على سواحل إسبانيا، وفى أى لحظة كان المسلمين مُعرضين للإستعباد لباقى حياتهم.

فى ذلك الوقت العصيب، ظهرت واحدة من أهم الفتاوى، تلك الفتوى التى شكلت نمط حياة العرب والأمازيغ فى إسبانيا والمعروفة بإسم فتوى وهران.

قام بعض رجال المسلمين بإرسال رسالة سرية للعلماء فى وهران بالمغرب، يشكون لهم ظروفهم ويشكون لهم بإجبارهم على ترك الإسلام وإجبارهم على سبّ النبى عليه السلام وأكل لحم الخنزير؛ فأخرج العلماء المسلمين الوثيقة التي نصت على
-إظهار التخلي عن الإسلام وتغيير الدين
-عدم الصلاة نهارًا أمام الناس وجمع الصلوات مرة واحدة ليلًا

-عدم صيام رمضان وصومه فى أيام أخرى
-أكل لحم الخنزير وسبّ الإسلام إذا تم إجبارك؛ كى لا تكشف
-اعتبار فريضة الحج ساقطة وليست مطلوبة منك

هذه الوثيقة رسمت طريق لحياة مزدوجة اضطر فيها مئات الآلاف من المسيحيين من إعلان مسيحيتهم وأصبحوا ما يُعرف ب **الموريسكيين**، وهذا اللقب يتكون من شقين «مورو» بمعنى مسلم و«إسكو» بمعنى صغير أو ضعيف وكانت تقال تحقيرًا للمسلمين فى الأندلس.

كان جميع المسلمين يخفون إسلامهم نهارًا، وعند حلول الليل يقومون بالصلاة والصيام وتعليم أولادهم الإسلام، وتسمية أنفسم أسامي إسبانية.

كان من الممكن أن يستمر الوضع على حاله، واعتاد المسلمون على نمط حياتهم الجديد، إلا أنه كان هناك زحف لأكثر شئ مرعب فى تاريخ أوروبا بأكملها فى ذلك الوقت وهي محاكم التفتيش.

شبح محاكم التفتيش الإسبانية

فى عام **١٤٧٨م**، قام الراهب سكستيوس الرابع من«sixtus» بتأسيس ما يُعرف ب.. ديوان التفتيش الإسبانى، وكان هذا الديوان موجه إلى فئتين، وهما اليهود السفارديم الذين مرّوا بنفس التجربة التى مرّ بها الموريسكيين، حيث تم إجبار ٢٠٠ ألف يهودى على إظهار مسيحيته، أمّا الفئة الأُخرى هم الهراطقة الذين يمتلكون أفكارًا دينية مخالفة لأفكار الكنيسة الكاثوليكية.

بعد سقوط غرناطة وانتهاء ثورة البيازين، بدأ ديوان التفتيش فى البحث عن الموريسكيين، فالتفتيش على وصف المؤرخين كان عبارة عن جهاز قمعى متكامل، فكل ديوان بداخله العديد من الموظفين وكان معهم الكتبة المُسجلين لكل المعلومات التى يأتى بها الجواسيس عن الموريسكيين، وكان معهم محققين يرافقهم متخصصى تعذيب؛ لإجبار الموريسكيين على الإعتراف بتهمة لم يقوموا بها.

مورست في هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، وأزهقت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب. ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك.

وكانت أقسى طرق التعذيب هى:

التعذيب بالماء (Toca/Tormenta de Agua): يتم ربط الضحية ووضع قطعة قماش في فمه، ثم يُسكب الماء ببطء ليوهم الضحية بالاختناق أو الغرق.

جهاز المخلعة (Potro): يتم ربط الضحية على طاولة خشبية من يديه وقدميه، ثم تُشد الحبال بكرة خشبية حتى تتمدد المفاصل وتتمزق الأوتار أو تنخلع العظام.

التعذيب بالبكرة (Garrucha): يُربط المتهم من يديه خلف ظهره، ثم يُرفع بواسطة بكرة إلى السقف ويُترك ليسقط فجأة قبل ملامسة الأرض، مما يؤدي غالباً إلى خلع الكتفين.

بالإضافة إلى بعض طرق التعذيب مثل: المناشير والخوازيق: استُخدمت لتقطيع الأجساد أو إعدام الضحايا بطرق بطيئة ومؤلمة.

كاسرات الأصابع: أدوات معدنية صغيرة مصممة لسحق عظام الأصابع لانتزاع الاعترافات السريعة.

كانت المحكمة عبارة عن سؤال واحد، وكان يتم إجبار المتهم بالاعتراف بتهم لم يقم بها، ثم يتم جلده وسحله وتغريمه، وإن لم يعترف بعد كل ذلك يُحرق حيًا؛ لذلك اضطر معظم الموريسكيين بالاعتراف؛ كى لا يتم حرقهم.

كان يُسمى حرق المتهمين بحدث الإيمان، وكان يحضره جميع ملوك وأغنياء إسبانيا؛ لمشاهدة المتهمين وهم يُحرقون، فكان يتم جرّ المسلمين فى الشوارع ويقوم العامة بسبهم وضربهم، ثم يتم تكديسهم فوق بعضهم فى ساحة كبيرة ويتم إحراقهم، حيث كانت تقال خطب دينية طويلة في الساحة، وفي نهاية الخطب يتم دعوة المتهمين للتوبة فإذا قرر الموريسكي إعلان توبته؛ كان يتم ممارسة الرحمة معه، وهي خنق المتهم قبل إحراقه، وكانت الجثث تترك للناس شهورًا وأسابيعًا كعبرة.

كان الغرض من العقاب ليس رد الحق، بل أن تكون عبرة، كى تمنع اى شخص آخر من القيام بهذا الفعل والتأثير النفسى على الناس

بلغت مرحلة التعذيب أقصى درجات المهانة والوحشية، لدرجة أنه إذا تُوفى أحد الموريسكيين وعلموا أنه كان موريسكيًا؛ أخرجوا عظامه وحرقوها كما لو كان حيًا.

كانت الوشاية سرّية ومضمونة ومكافئتها كبيرة جدًا، فإذا قمت بالتبليغ عن جارك الموريسكى تأخذ منزله وأرضه وماشيته.

بالرغم من كل ما حدث للموريسكيين، إلا أنهم كانوا صامدين، واستطاعوا التمسك بإيمانهم فكانوا يخبئون أجزاء من القرآن فى جدران المنازل، في القرن العشرين وبعد مئات السنين، وُجد العديد من كتب القرآن داخل الجدران فى منازل الموريسكيين.

لسنوات طويلة ظل المسلمون يمشون على حد السيف، يخاطرون بأرواحهم كل يوم ويظهرون للناس خلاف ما يؤمنون به، وهذا ساعد كثيرًا على وصول تشارلز الخامس «charles» حفيد إيزابيلا إلى الحكم.

كان الملك تشارلز يقوم بتجاهل مسألة الموريسكيين وكان يرى أنه يستفيد من هذا الوضع، فكان حكمه ممتدًا من أجزاء فى إيطاليا وهولندا وبلجيكا والنمسا ومعظم أمريكا اللاتينية، وكانت المملكة مترامية الأطراف؛ مما جعل للملك تشارلز عداوات عديدة، فكان يحارب السلطان العثمانى سليمان القانونى فى النمسا، وكان السلطان مستعد لدخول فيينا، وكان يحارب الفرنسيين على إيطاليا، أما فى البحر فكان يحارب الإنجليز، وعلى ساحل البحر المتوسط الجنوبي كان يصطدم بـ قراصنة الجزائر مع قائدهم خير الدين بربروسا، أدّى كل ذلك لانشغال تشارلز بالحروب الخارجية وتجاهله للموريسكيين،

وكان يرى أن الموريسكيين نشطين فى العديد من المجالات مثل الزراعة والصناعة والتجارة.

قام الملك تشارلز في عام **١٥٢٦م** بإصدار قانون يمنع إستخدام اللغة العربية أو التحدث بها، وكان يُعدم كل من يُقبض عليه؛ لذلك أستغل الملك مهارته فى التفاوض وعلمه بشئون التجارة للتفاوض مع الموريسكيين.

وافق تشارلز بالسماح للموريسكيين بتحدث اللغة العربية مقابل دفع مبلغ ضخم جدًا، حوالى ١٠٪ من ميزانية إسبانيا مقابل تجميد هذا القانون لمدة **٤٠** عام، ووافق تشارلز على المفاوضة؛ لأنه كان يحتاج المال في تمويل جيشه، وهكذا نجح الموريسكيين فى عيش حياة شبه مستقرة لبعض الوقت.

فقد الملك تشارلز الشغف ب حكم البلاد وقام بالتنازل عنها عام **١٥٥٦م**، حيث أعطى الجزء الأوروبى لأخيه فيرناندو والجزء الإسبانى لابنه فيليب الثاني «philip» الذى كان مشهورًا بعناده وقسوته، وكان يرى دائمًا أنه سيف الكنيسة الكاثوليكية والمسؤول الأول عن تطهير العالم من كل ما هو ليس كاثوليكي.

عند الوصول إلى عام **١٥٦٦م**، وبعد مرور **٤٠** عام على صفقة التجميد التي كانت توقف استخدام اللغة العربية، أمر فيليب بعدها بتطبيق قانون جديد يمنع التحدث باللغة العربية تمامًا.

حاول الموريسكيين التفاوض مجددًا مع فيليب، لكنه قام بإنهاء حروبه مع الفرنسيين وتفرّغ للموريسكيين على عكس والده.

رفض فيليب مد التجديد وأعلن حظر اللغة العربية، وقام بشن حرب على كل من يتكلم العربية، فكان أمام العرب ثلاث سنوات لتعلم اللغة الإسبانية والتحدث بها، بالإضافة إلى ذلك فُرض على الموريسكيين تسليم جميع الكتب المكتوبة بالعربية خلال **٣٠** يوم، وتم اصدار أن جميع العهود المكتوبة بالعربية عهود باطلة، وقام بإلغاء جميع العادات العربية؛ لمحو الهوية الثقافية للمسلمين، لكن لن يتوقف الإضطهاد عند ذلك الحد، تم إلغاء الحمامات العامة التي كانت تمثل الثقافة الإسلامية في النظافة والطهارة، وتم منع تناول العديد من الأطعمة العربية مثل الكسكس.

حرب البشرات

تم قهر الموريسكيين بشكل غير مسبوق، وأخذ بعضهم يفكر فى طريقة للحل؛ فقام الأغنياء منهم وكبار العائلات والشخصيّات البارزة من موريسكي غرناطة بالتجمع والتخطيط من أجل الدفاع عن أنفسهم، وقاموا بانتخاب واحد منهم يُسمى **محمد بن أمية**.

قام أمية وأصحابه بالتجمع فى جبال البشرات وتجميع الأسلحة والاستعداد هو وأتباعه من أجل القيام بالثورة، وبعثوا برسالة للعثمانيين يطلبون منهم المدد.

جاء يوم **٢٤ من ديسمبر ١٥٦٨م**، حيث بدأت ثورة معروفة بإسم ثورة البشرات، حيث نزل بعض الموريسكيين من الجبال إلى بيوت العبادة المسيحية وقاموا بحرقها وقتل الأوروبيين، وقام الآلاف من الموريسكيين بالإنضمام إلى الثورة وتوسيع نفوذهم والإستعداد لاسترجاع الأندلس.

فى غضون أسابيع، أعلن الموريسكيين أنهم قاموا بالسيطرة على منطقة البخارى التى كانت منطقة بعيدة صعب الوصول إليها، وبعد علم الملك فيليب بما حدث؛ بعث قوة محلية لقمع هذه الثورة، لكن المسلمون قاموا بإبادة هذه القوة المحلية والانتصار عليها، عندها شعر فيليب الخامس بأن الأمور تخرج عن سيطرته، وأنها ليست مجرد أعمال شغب وأن بعض المسلمين يحاولون تأسيس دولة داخل دولة؛ فقام فيليب بالاستعانة بأخيه الغير شقيق الدوق النمساوى **دون خوان**، والذى كان معروفًا بجبروته ووحشيته.

بعد وصول خوان إلى إسبانيا، شكّل جيشًا ضخمًا وكان يتخذ شعار واحد وهو «أحرقم جميعًا»، فكان لا يفرق بين موريسكي مدنى و موريسكي مقاتل أو فلاح أو حاملًا للسلاح، فأصبحنا نرى قرى كاملة تُحرق ومذابح جماعية للرجال والنساء وأخذ الأطفال كأسرى وعبيد.

قال المؤرخ الإسباني **لويس كارفاخال** الذي كان معاصرًا لهذه الأحداث حيث كتب عنها وقال:
« رأيت بعينى أطفالًا يُباعون فى أسواق غرناطة كالماشية ورأيت يُجرون فى الشوارع ويغتصبن أمام أزواجهن!»
لكن ومع كل ما حدث، لم تنته الثورة على يد الإسبان، بل انتهت على يد الموريسكيين بأنفسهم.

قبض الإسبان على والد وأخ ابن أمية للضغط عليه، فأرسل ابن أمية رسالة إلى خوان النمساوي يعرض فيها عليه تسليمهما له مقابل ثمانين أسيرا مسيحيًا، وإلا انتقم من المسيحيين الذين تحت سلطته. فاتفق المجلس الحربي في غرناطة على عدم الإجابة، و أرغموا والد

ابن أمية بالكتابة لابنه ناهيًا إياه عن متابعة الثورة ونافيا أية إساءة أو تعذيب.

قام كاتب ابن أمية بخيانته وكتب رسالة مزورة كتب فيها بأن ابن أميه يخون الموريسكيين من أجل والده وأخيه فوصلت الرسالة المزورة إلى ابن عبو هذا الأمر، وآمن بالشائعات التي نشرها العدو حول نية ابن أمية مهادنة الإسبان لتحرير والده وأخيه. واعتقد المتطوعون أن ابن أمية قد خان، فقرروا عزله وإعدامه دفاعا عن الثورة.

وسار ابن عبو ورجاله إلى مقر ابن أمية في لوشر، فقبضوا عليه وواجهوه بالتهم التي يتهمونه بها، وأطلعوه على الرسالة التي بيدهم. فتبرأ ابن أمية من التهم الموجهة ضده، مؤكدًا لهم أن الرسالة مزورة، لكن دفاعه هذا لم يفده، فسجنوه في غرفة وفي مساء يوم **٢٠ أكتوبر ١٥٦٩م**، قام ابن عبو بإعدام ابن أمية خنقًا، وتولى ابن عبو القيادة، لكن سرعان ما تمت خيانته من أحد قادته.

كان ابن عبو يقاتل بالكهوف ولم يبق معه سوى ٤٠٠ مجاهد فقط، وضاقت رقعة المجاهدين فأوعز الاسبان إلى بعض الذين تبقو مع ابن عبو واسمه (الشونيش) ارسلو له اغراءات شديدة بقتل ابن عبو مقابل عفوهم عن اهله واعطاءه وعود كثيرة ووعدوه بتسليم زوجته وابنتيه الاسيرتين بشرط أن يقتل ابن عبو أو أن يأتي به حيا، وفي **١٣ مارس ١٥٧١م**، نجحت هذه المؤامرة وهاجم الشونيش الخائن و٧ من أتباعه على ابن عبو في الكهف الذي كان مختبئا فيه فقاوم حتى استشهد، عندها قام النصارى بجريمة حاقدة بحق جثمان ابن عبو رحمه الله حيث سلمهم الخونه جثمانه فحمل الاسبان جثمانه

إلى غرناطه وادخلوه في المدينة في حفل ضخم ووضعوه في قفص حديدي والبسوه لباس كامل ثم حملوه على فرس وقطعوا به المدينة وتتبعه افواج ضخمة من الأندلسيين ثم حملوا الجثمان إلى المحكمة واجروا عليه الإعدام وهو ميت، قطعوا رأسه وسحلوا جسمه في الشوارع ومزقوه واحرقوه في أكبر ساحات غرناطة في همجية لا تضاهى، ثم وضع الرأس في قفص من حديد فوق المدينة باتجاه جبال البشرات حيث بقي معلقا **٣٠** سنه، ومن هنا تنتهى الثورة ويبدأ بعدها جزء أصعب فى حياة الموريسكيين.

الفصل الثالث

فواتير الطرد

بعد نهاية ثورة البشرات، قرر فيليب الثانى أن ينتقم، حيث أمر بتهجير جميع الموريسكيين فى غرناطة، حوالى **٥٠-٨٠ ألف** موريسكي يترك غرناطة فورًا.

بدأ يوزع الموريسكيين فى جميع أنحاء إسبانيا، لم يكن هذا الأمر لإعادة توطين، بل عملية تقسيم حقيقية، جميع العائلات كانت تُقسم، الرجال فى مدينة والنساء فى مدينة أُخرى، ويتم أخذ الأطفال كعبيد.

كان التقسيم قاسيا جدًا لدرجة أن بعض الأسر لم تستطيع أن تلاقى بعضها مجددًا، ورحلة التهجير لم تكن مريحة، بل كانت قاسية جدًا، حيث سيموت الآلاف فى الطريق من الجوع أو من البرد أو من التعب، حيث فُرض عليهم التهجين دون اى مؤن للرحلة.

ظلّ الموريسكيين سنوات طويلة يمثلون مصدر قلق فى دولة إسبانيا، خصوصًا بعد ثورة البشرات.

كان المجتمع الحاكم فى البدلية مُنقسن على الموريسكيين، بعض الآراء ترى أنه يجب ضمهم فى المجتمع وعدم خسارتهم، ويمكن مع الوقت اكتشاف انهم مواطنون صالحون، فتستطيع الاستفادة من قدراتهم ويمكن السيطرة عليهم، لكن الغالبية العظمى من المجتمع

الحاكم كانت ترى الموريسكيين خطر كبير جدًا، كانوا يرون انهم يمكنهم التحالف مجددًا مع العثمانيين وقيام حروب جديدة.

بداية الإنـهيار

يموت فيليب الثاني ويتولى ابنه فيليب الثالث الحكم، الذي كان معروفًا بالعزلة وضعف الشخصيّة ويتم التحكُم فيه من شخص آخر وهو الدوق **دى ليرما** «De Lerma»، الذى كان فى يده زمام الأمور.

فى هذا الوقت بدأت إسبانيا تعاني من الإنهيار الإقتصادى، حيث نرى إسبانيا فى عام **١٦٠٧م** تُعلن إفلاسها، وفى عام **١٦٠٩م** اضطرت إسبانيا لإنهاء جميع حروبها مع هولندا بعد **٤٠** عام من الشحن والتصارع، لكن لم يمتلك الإسبان ميزانية لتدارك أزمات الحرب؛ فقامت إسبانيا بعقد معاهدة هدنة مذلّة.

أُهينت إسبانيا وافلست وكثرت الاحتجاجات والإضرابات، وهنا لجأت إسبانيا إلى ما تلجأ إليه الأمم عند لحظات الضعف، تبحث عن عدو سهل الإنتصار عليه بدلًا من البحث عن العلاج لحل الأزمة.

بدأت إسبانيا فى البحث عن إنتصارات وهمية، عن كبش فداء يشغل بال الشعب ويعيدهم إلى الأمجاد السابقة، وهنا لم يكن هناك أسهل من الموريسكيين، ضحيّة جاهزة ومُتهم أثبت كفائته فى أكثر من موقف.

في عام **١٦٠٩م**، نرى الدوق دى ليرما يجعل فيليب الثالث يصدر قرار يطرد فيه الموريسكيين من أكبر تجمع لهم فى ذلك الوقت، حيث كانوا متمركزين فى فالنسيا، كان القرار لا يستثنى أى شخص منهم حتى وإن غيّر الشخص دينه بالفعل.

فى سبتمبر عام **١٦٠٩م**، قُرأ مرسوم يمهل الموريسكيين **٣** أيّام للرحيل للأبد بنفس القوانين، لا تستطيع أخذ شئ أكثر مما تستطيع يدك حمله، ومُنع عليهم أخذ اى ذهب أو فضة، وعملية الترحيل ستكون بمرافقة مجموعات من الجيش، وبعد **٣** أيام أى موريسكي يوجد فى فالنسيا سيتم إعدامه.

كان أبسط حقوق الموريسكيين هى معرفة مكان الوجهة الذاهبين إليها، لكن لم يكن مسموحًا لهم بمعرفته أيضًا، لنرى بعد أيام مدن إسبانيا مملوءة بموريسكيين مذعورين، الذين سيتم تهجيرهم إلى الأبد فى رحلة مليئة بـ المأساة والمعاناة فى سفن متهالكة، فإذا كانت السفينة مصممة لحمل **١٠٠** شخص، كانت تحمل وقتها **٥٠٠** شخص.

غرقت بعض السفن قبل أن تصل، والبعض الآخر هجم عليهم المرتزقة الإيطاليون، فكانوا يسرقون الموريسكيين ويغتصبون نسائهم ثم يلقونهم فى الماء، وإن لم يُوجد مرتزقة فكان القراصنة ينتظرون الموريسكيين على سواحل إسبانيا.

تكتمل مأساة الموريسكيين عند الوصول إلى سواحل شمال إفريقيا طنّ الموريسكيين أنهم وصلوا إلى العرب الذين سيقومون بضمهم ومساعدتهم، لكن يُفاجأ الموريسكيين بأن العرب والمسلمين ليسوا

بنفس طاقتهم، لم يكن العرب يرون الموريسكيين مثلهم، حيث كانوا يتحدثون الإسبانية ويرتدون ملابس أوروبية ويمتلكون أسماء غربية، لم يكن الاستقبال حارًا، بل فى الكثير من الأوقات كان الاستقبال عدائيًا.

بعد فالنسيا بدأ القرار فى التطور واشتمال المدن الأخرى، فى مدينة أراجون يتم قرآة القرار عام **١٦١٠م** ويحاول **٦٠ ألف** موريسكي إمساك السلاح والإعتراض على القرار، لكن يتم الرد عليهم بمذبحة جماعية، حيث فى قرية صغيرة قرر الألاف من الموريسكيين الإعتصام فى الجبال، إلا أن الجيش حاصرهم وقام بقتلهم جميعًا أطفال ونساء وشيوخ.

فى عام **١٦١١م**، يتكرر المشهد في قشتالة، حيث تم تهجير الكثير من الموريسكيين فى قشتالة والذين كانوا ممن تم تهجيرهم من غرناطة، وهكذا تظل المعاناة مستمرة وتأخذ أشكالًا أسوأ، حتى أعلان فيليب الثالث عام **١٦١٤م** إكتمال الطرد رسميًا.

فى الحقيقة لا نعرف عدد الموريسكيين الذين تم طردهم من إسبانيا، لكن بعض المصادر تقول أن العدد يصل إلى **٣٠٠ ألف** شخص وبعض المصادر الأخرى تقول **٥٠٠ ألف** شخص منهم عشرات الألاف ماتوا فى الطريق.

لم يكن طرد الموريسكيين ناجحًا تمامًا، حوالى **١٠٠-٢٠٠ ألف** شخص نجحوا فى البقاء فى إسبانيا، حيث كان الجنود المشرفين على الطرد فاسدين، كانوا يأخذون النقود من الموريسكي الغنى ويتركوه ليهرب أو يعود معهم فى رحلة العودة.

كثيرًا من النبلاء في فالنسيا وأراجون كانوا يرون هذا القرار جنونيًا؛ لأن الموريسكيين كانوا من أمهر العمال فى إسبانيا، لذلك نرى عشرات الآلاف من الموريسكيين يعودون مجددًا إلى إسبانيا بمساعدة النبلاء من أجل العمل.

مع الحكومة الجديدة والدوق دى ليرما، لم يكن هناك أى إهتمام بعودة الموريسكيين بعد طردهم؛ لأن الهدف لم يكن لتصفية الموريسكيين، بل تحقيق انتصار سياسى يُظهر إسبانيا قوية مجددًا.

وهكذا بعد الإنتصار الرمزى، بدأ الدوق دى ليرما الإحتفالات الضخمة، وأوضح للشعب الإسباني أن إسبانيا انتصرت على الموريسكيين الوحوش**!**، الذين كانوا مجهزين بأقوى الأسلحة والتى كانت عبارة عن أسلحة بيضاء وبعض الحجارة، كونوا جيش قوى متكون من الرجال والنساء وأطفال وشيوخ عُزّل مصابين بالحمّى والشيخوخة**!**، بدأ برسم اللوحات الضخمة تخلد هذا الحدث العظيم**!**، وتم صك العملات التذكارية التي تُخلد من هذا الحدث وقيام الاحتفالات والمهرجانات التى تخلّد إنتصار إسبانيا على شعب الموريسكيين.

مع وجود بعض العقلاء فى إسبانيا، الذين كانوا يرون أنهم أمام مشهد حزين وساذج، قام الكثير من المؤرخين الإسبان بكتابة روايات شهيرة تتحدث عن رحلة طرد الموريسكيين من إسبانيا وجعلوا أبطال تلك الروايات موريسكيين، ذكر فى تلك الروايات أن ما حدث للموريسكيين كان مأساة كبيرة، كثيرًا من الناس تعاطفت بشكل إنسانى وبعض خبراء الإقتصاد أرسلوا إلى الملك بأن ما حدث كارثة، لكن الملك مازال يحتفل بالنصر المزيف بعد إفلاس الدولة.

انتهت الإحتفالات واستيقظ الإسبان على الواقع، فى فالنسيا وأراجون أكتشف الإسبان أن الموريسكيين كانوا العمالة الزراعية الأكبر فى المدينة، تلك المهنة التي توارثها الموريسكيون لأكثر من ٨٠٠ عام من أجدادهم المدجنين، وبالتالي انهارت الزراعة بشكل كامل.

حسرت إسبانيا أيضًا واحدة من الصناعات المهمة التى كانت متميزة بها وهى صناعة الحرير، قرى كاملة إنهار اقتصادها بعد خسارة ثلث سكانها، ومع قلة وجود السكان، قلّ دخل الدولة وخسر النبلاء المستفيدين من العمالة.

حاولت إسبانيا حل الأزمة، فرضت الضرائب على عامة الإسبان؛ مما أدى إلى انزعاجهم وقيام الثورات الداخلية، ففي عام **١٦٤٠م،** حدث فى إسبانيا ثورتين فى عام واحد، الأولى فى كتالونيا والأخرى فى البرتغال التابعة لإسبانيا.

صارت إسبانيا بعد ما كانت القوة التى ترعب العالم وترسل الرحلات وتستكشف القارات الجديدة بلا حول ولا قوة، اتحدت انجلترا وفرنسا وهولندا ضد إسبانيا وأخذوا يسلبون مستعمراتها واحدة تلوالأُخرى، بعد **٥٠** عامًا، قامت الثورة الصناعية فى جميع أنحاء أوروبا إلا فى إسبانيا.

تخلفت إسبانيا عن كل الدول المتقدمة، حتى وصلت فى بداية القرن العشرين إلى أكثر الدول فقرًا ومعاناة وتخلّف فى أوروبا.

على الجانب الآخر، بدأ الموريسكيون يندمجون فى المجتمعات التى ذهبوا إليها، بدأوا يتخطون فرق اللغة و يندمجون مع شعوب المغرب والجزائر وتونس وأقليات موجودة فى مصر والشام وتركيا.

شُوهد فى شمال إفريقيا رصد آثار الموريسكيين ونقلهم لبعض الصناعات والكثير من طرق الزراعة والعمار، مع دخول القرن العشرين، بدأ الإسبان يتحدثون عن مأساة الموريسكيين، بدأوا يتحدثون عن الجريمة التاريخيّة التى وقعت فى حق شعب كامل، وقُدمت اقتراحات بأحقيّة منح أحفاد الموريسكيين الجنسية مثل الذى حدث مع اليهود السفارديم عام **٢٠١٥م** عندما صدر قرار يمنح اليهود الذين طردوا من إسبانيا عام **١٤٩٢م** الجنسيّة

بعد الدراسات تقول من **١٠: ٢٠** بالمئة من الشعب الإسبانى أصلهم من الموريسكيين الذين استطاعوا الهروب من التهجير والعودة فى السر.

فى الحقيقة وبالرغم من إختفاء الموريسكيين كشعب، إلا أنهم أعطوا العالم درسًا صعب النسيان، درس يُعلم الناس اليوم أن التقدم والتميز والازدهار لا يأتون إلا بالتسامح والمشاركة، المصلحة تتطلب الإندماج، إذا أردت كسب الأموال وازدهار مشروعك، يجب عليك أن تستفيد من جميع عناصر المجتمع المختلفة التى تعمل جميعًا من أجل هدف واحد حتى الوصول إليه.

هذا الدرس قادر على تقديم نموذج فريد وتقديم دولة شبه متقدمة فى العصور الوسطى، هذا الدرس الذي تمتد صلاحيته إلى الأبد، أثبت أن القوة والعنف عادةً ما ينجحون، لكن لا يقدمون حلولًا نهائية طويلة المدى.

البشر فى إسبانيا أو اى دولة فى العالم لم يُخلقوا على طبع واحد، الإختلاف بينهم هو سنّة كونية منذ بداية الخلق، إختلاف فى الثقافة والطباع والشكل واللغة والتاريخ.

هذا الاختلاف يخلق فريقين، فريق يدمر أى شئ لا ينتمى إليه وفريق يحاول أن يجد طريقة تعايش مشتركة، كلّا منّا يحافظ على اختلافه، لكن جميعنا علينا نفس الحقوق ومسؤولون نفس المسؤولية.

المراجع

_ العرب لم يستعمروا أسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب - إغناسيو أولاغوي - مكتبة الإسكندرية مركز نهوض للدراسات والنشر.

_ العصر الأندلسي : خروج العرب من الاندلس التطهير العرقي وجرائم الإبادة الجماعية ضد المسلمين في أسبانيا.

_ الموريسكيون و محاكم التفتيش في الأندلس 1492 – 1616 م لعبد الله حمادي.

_ الموريسكيون الأندلسيون مرثيدس غارثيا أرينال.

_ سقوط غرناطة ومأساة الاندلسيين - جمال يحياوي.

الفهرس

أحمد الموزى

مطرود من الأندلس

هذا العمل يتحدث عن قصة طرد معظم المسلمين الموجودين فى الأندلس، وحدوث واحدة من أكبر عمليات القمع فى التاريخ فى حق شعب كامل.

هذا الكتاب يتناول نمط حياة الموريسكيين بعد سقوط آخر معاقل المسلمين فى الأندلس مدينة غرناطة وكيف صمدوا أمام محاكم التفتيش الإسبانية.

شرح هذا الكتاب أيضا التدهور الإقتصادى الذى عاشته إسبانيا بعد إكتمال الطرد، وتخلفها عن جميع دول أوروبا.